المحاضرة الأولى: الأدب الشعبي المفهوم والاصطلاح:

الأدب الشعبي هو أحد موضوعات التراث الشعبي اللامادي التي لها مكانة هامة، وفي ذلك يقول الدكتور محمد الجوهري« لعل من أيسر الأمور على الباحث أن يدعي انتماء الأدب الشعبي إلى التراث الشعبي ، ليس كميدان عادي ، وإنما كواحد من أبرز موضوعاته وأكثرها عراقة ، ووجه اليسر في هذا أن علم الفولكلور كان في مرحلة من مراحل تطوره ، يقوم أولا وأخيرا على دراسة الأدب الشعبي ، فالأدب الشعبي موضوع تقليدي بارز من موضوعات التراث الشعبي ، لسنا في حاجة إلى أن نسوق أدلة على ذلك...ومهما اختلف الباحثون على حدود علم الفولكلور ، فهم لا يختلفون لحظة عن أن ميدان الأدب الشعبي يقع في مكان القلب من هذا العلم» ، فهذا الميدان ميدان خصب يعتبر مرآة، تنعكس عبره عادات وتقاليد وطريقة عيش المجتمعات وأنماط تفكيرها، فما مفهوم الأدب الشعبي؟ وما اتجاهاته؟ وما أهم خصائصه؟.

1_ مفهوم الأدب الشعبي:

مصطلح الأدب الشعبي مركب من لفظتين أدب وشعبي، ولفظة أدب تعني» ذلك الكلام الفني الجمالي، رفيع المستوى من شعر أو نثر صادر عن أديب كاتب أو شاعر ، وخاضع لمنطق لغوي فني معين»، أو هو ما يعبر »عن الكلام الذي يمثل قيمة ثقافية وجمالية في المجتمع، لأنه يرقى على لغة التواصل العادي من حيث الشكل والمضمون على السواء»، فالأدب هو الكلام الصادر عن نخب المجتمع بشطريه الشعر أو النثر، فيرتقي بذلك عن لغة التواصل اليومي العادي.

أما لفظة شعبي« فيعني أنه من إنتاج الشعب وملكيته ، وهو يقابل لفظ رسمي أو نخبوي». أما إذا أردنا أن نعرف مفهوم هذا المصطلح كاملا "الأدب الشعبي" ، فهناك عدة آراء و لكل جهة آراؤها وحججها، لخصت في ثلاث اتجاهات ، فكان كل اتجاه مدعما بنوع التكوين السياسي والثقافي والمنهجية في مقاربة المادة الشعبية ، سنحاول عرض هذه الآراء:

الاتجاه الأول:

يرى أن الأدب الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات هو أدب عاميتها ، التقليدي الشفاهي، مجهول المؤلف، المتوارث جيلا عن جيل، فهذا التعريف يقوم على أربعة عناصر أساسية هي:

- أن الأدب الشعبي عامي اللغة مقابل الأدب الرسمي الفصيح.
- الأدب الشعبي تقليدي النشأة مقابل الأدب الرسمي المعاصر.
- الأدب الشعبي شفاهي مقابل الأدب الرسمي الكتابي.
- الأدب الشعبي مجهول المؤلف ، مقابل الأدب الرسمي معروف المؤلف.

وقد وجّه لأصحاب هذ ا الرأي انتقادات، بحيث أنه فرض حصارا معرفيا قويا حول مفهوم الأدب

الشعبي وضّيق من مساحته الفكرية والثقافية، حيث استثنى من فضائه ذلك الأدب العامي المسجل والمذاع عبر وسائل حديثة كالمطبعة، الإذاعة، التلفزة، المسرح والسينما...كما أخرج من فضائه ذلك الأدب معروف المؤلف ، بحيث نسمع ونقرأ يوميا أعمالا أدبية شعبية من قصص وحكايات وأشعار لأدباء شعبيين معروفين وحريصين على تدوين أسمائهم واقترانها بأعمالهم الأدبية، وقد نفى هذا التعريف عصرية الأدب الشعبي، وهو ما يبطل وجود قصاصين وشعراء في العصر الحالي ينتجون أدبا متجددا، ومنه فإننا سنعتبر هذا التعريف ضيق، كونه قد أسقط جزء من الأدب الشعبي من دائرته.

الاتجاه الثاني:

إن « الأدب الشعبي لأية أمة من الأمم بالنسبة لهذا الاتجاه هو أدب عاميتها»، ونلحظ تركيز هذا التعريف الموجز في شكله اللغوي وفي بنيته الدلالية، على عنصر واحد وهو عنصر اللغة، فهو يبدو أحادي النظرة، كونه فصل الشكل عن المضمون وأسقط كل العناصر الخارجية المنتجة والمكونة للإبداع الشعبي مثل المؤلف والتوارث والانتقال والملكية الجماعية ، ونحن نعلم أن بعض الأعمال بالرغم من عامية طابعها، فهي ليست شعبية ولا تمت بأية صلة للطبقة الشعبية وقضاياها، فهي أعمال موجهة خدمة لطبقة نخبوية، لجأت إلى العامية كأسلوب للاتصال، وذلك لأغراض سياسية أو عرقية عنصرية» كلجوء بعض الشعراء اليساريين في مصر إلى العامية المصرية لأغراض إيديولوجية أو تواصلية محضة ».

الاتجاه الثالث:

يرى هذا الاتجاه « أن الأدب الشعبي ، هو ذلك الذي ارتبط ارتباطا عضويا بقضايا ومشاكل وآمال وآلام الجماهير الشعبية، بالتالي فهو الوعاء الفني والجمالي لروح الشعب والمصور لحركيته الاجتماعية والثقافية والفكرية»، ونحن نرى أن هذ ا التعريف لم يهتم بالعناصر الأخرى التي اعتمدها الرأيان السابقان في تعريفهما للأدب الشعبي: اللغة والزمن والمؤلف ووسيلة التوارث، فسواء كان عاميا أو فصيحا، وسواء أكان شفويا أو مكتوبا وسواء أكان تقليديا أو معاصرا، فإن الأهم في نظرهم هو المضمون، وهو العنصر الثابت بثبات الشعب ، أما بقية لعناصر فمتغيرة.

وهكذا نجد من خلال هذه الاتجاهات المختلفة ما ركز على الشكل، ومنها ما ركز على المضمون ، ومنها ما جمع بينهما، وهي تتحد في محور دلالي ثابت ، يمكن أن نستنتج من خلاله تعريفا شاملا للأدب الشعبي ، وهو ذلك الأدب الذي أنتجه فرد بعينه ثم ذاب في ذاتية الجماعة ، التي ينتمي إليها مصورا همومها وآلامها في قالب شعبي جماعي، يتماشى ونظرتها ومستواها الفكري والثقافي واللغوي وموقفها الإيديولوجي إزاء المجتمع.

2 _ خصائص الأدب الشعبي:

نظرا لحركية مادة الأدب الشعبي وتنوع مكنوناتها اللغوية وثراء فضائها الرمزي ، بالإضافة إلى اختلاف رؤى الباحثين ، وبالتالي اختلاف توجهاتهم الثقافية والإيديولوجية والمعرفية، واختلاف أدوات

البحث والمفاهيم ، فإن الباحثين يتفقون على أن الأدب الشعبي له أربع ميزات هي

أ_ العراقة:

إن تاريخ الأدب الشعبي مرتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان، وتاريخ ظهوره الأول يعود إلى تاريخ ظهور الإنسان الأول فوق سطح الأرض، فلقد غنى هذا الإنسان ورقص ونحت وبكى واشتكى وفرح وحزن ، واشتغل وعمل وتصارع مع المظاهر الطبيعية ، فلم تمر هذه الممارسات بصمت ، فهو عمل على تخليدها بطريقته الخاصة ، فشكلت رصيده الثقافي والأدبي واستمرت حية تتوارثها الأجيال عبر العصور ، ومنه فالمقصود بمصطلح العراقة هو » أن يكون هذا الأدب قديما ، يحمل السمات الثقافية لعصور موغلة في القدم، ومع ذلك مازالت تمارسه وتؤمن به الجماعات الشعبية والشعوب حتى الآن ، لقدرته على إشباع حاجاته الثقافية والاجتماعية معرفيا، فليس القدم وحده هو ما يميز هذه الأشكال الأدبية، بل هناك أيضا ضرورة الاستمرارية والممارسة« 1.

وعلى الرغم من أن غياب الكتابة وانعدام التدوين، الذي أضاع جزءا مهما من هذا الأدب في مرحلته الأولى، فإن الذاكرة الشعبية على مر العصور ، حاولت الحفاظ على مختلف الأشكال الشفوية بالإضافة إلى السحر والمعتقدات وغيرها.

ب_ مجهولية المؤلف وجماعية التبني:

إن الأدب الشعبي اجتماعي وجماعي في شكله ومضمونه ، إذ أن مبدعه سرعان ما يذوب في إنتاج الجماعة، وذلك لاقترانه بقضاياها، فهو ملتصق بها يتحرك في دائرتها وينهل من فضائها المادي والمعنوي« وجماعية الإبداع تتمثل في صورته الشاملة لكل أحاسيس وآلام وآمال أفراد الشعب، فكل واحد يجد نفسه مترجما في هذا الإبداع ، وهذا راجع إلى النظرة الشمولية التي يمتاز بها المبدع الشعبي الأول بحيث يتألم بآلام الجماعة ويفرح بأفراحها، ويحلم بأحلامها فهو ملتصق بها التصاقا عضويا. والمبدع الشعبي منسلخ عن ذاتيته الفردية»، فجماعية الأدب الشعبي تتمثل في مشاركة كل واحد في الإنتاج والعمل على تطويره ، بحيث لا يبقى على صورته الأولى، فبمجرد أن ينتهي المبدع من عمله، تتلقفه الجماعات وتنسبه لنفسها، فيذوب في كيانها ويصبح ملكا لها.

ج_ الشيوع والانتشار:

لا يقصد بهذه العملية «الانتشار بين الجماعات الدنيا من الشعوب) الفلاحين والعوام(،بل الانتشار والممارسة بين كافة طبقات وفئات الأمة، فبعض العادات الشعبية المرتبطة بكثير من المناسبات الحياتية، مازالت تمارس بين كافة المستويات والطبقات والفئات من أبناء الشعب، كما نرى في السبوع والأعياد وزيارة المقابر...الخ»، والإبداعات الشعبية للأمم من أمثال وأغان وحكايات متشابهة في عناصرها منذ القديم إلى اليوم، ما يقودنا للقول بتشابه خبرات الإنسان، وهو ما يعني عالمية الانتشار والذيوع.

د_ التواتر الشفاهي:

تمتاز الإبداعات الشعبية بانتقالها وتواترها الشفاهي وحتى« مع وجود التوثيق والتدوين للكثير منها،

فمازال التواتر الشفاهي هو الأهم في انتشار» ، فهو الوسيلة التي تواصل بها الأدب الشعبي عبر الزمن.

هـ- تداخل الأدب الشعبي مع الفنون الأخرى:

يظل الأدب الشعبي الوعاء الثقافي والفكري لمختلف المعارف الإنسانية، فهو الذي تلتقي تحت جناحه « اللغة، الدين، السحر، المعتقدات، التاريخ، الفلسفة وغيرها من ألوان المعرفة الأخرى فهو يتقاطع مع كل المعارف، يأخذ منها بل يحتويها في نفس الوقت، فإذا كان الأدب الرسمي يميل إلى الاستقلالية والتخصص، فإن الأدب الشعبي يأخذ من كل المعارف يوظفها وينتعش منها، وبتقاطعها داخل فضائه»، وهو ما يكسبه نوعا من المرونة والحركة المعرفية النشيطة، بالإضافة إلى أنه أضحى ميدانا خصبا لمختلف الدراسات الألسنية، الأدبية الاجتماعية...الخ. وهذه أهم الخصائص التي يتميز بها الأدب الشعبي.

المصادر والمراجع:

ينظر هذه المصادر:

1_ الجوهري محمد: علم الفولكلور، الأسس النظرية والمنهجية،ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة، مصر 1981.

2_ سعيدي محمد: الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، د ت.

3_ زغب أحمد: الأدب الشعبي، الدرس والتطبيق، ط1، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر 2008.